الدعوة التوحيدية لقيام الدولة عند ابن تومرت

د. منصور عفيف
جامعة الأمير عبد القادر

إن لب هذه الدعوة التومرتية تقوم على أساس توحيدي اتخذه الموحدون غرضا فيما بعد أساس قيام دولتهم الكبرى، ناظرين في ذلك إلى تعاليم إمامهم الذي أراد من التوحيد أن يكون قاعدة انطلاق ومن خلالها أوجب تعليم هذه النظرية المستقاة من كل المذاهب الإسلامية التي قرأها الإمام وأتقنها بعمق أوصله إلى أن توحيد الله ووحدانيته واجبة وجوبا مطلقا على كل إنسان، كلف بهذا العاقل الذي أوكل الله إليه القدرة على إدراك مكنونات أسرار الأشياء، وفهمها بعمق يدل أوضح دلالة على قدرة هذا الكائن العجيب المدقق لكل ما يريد الوصول إليه في فهم الذات الإلهية، لما خص به من العقل الذي هو ملكة يقتدر بها على إدراك الأشياء إدراكات جزئية أو كلية ممثلة في استنباط الأحكام ومعرفة دقائق الأشياء بالإطلاع على كنهها، حيث قدرة هذه الملكة التي ركبت في الإنسان فقال تعالى: ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر"[1]. إذ تكريم الله عز وجل لمخلوقه يكمن في العقل كما قال سبحانه: "وفي أنفسكم أفلا تبصرون"[2]. والأبصار هنا يكمن في النظرة العقلية كما قال: "فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور"[3]. ومن هذا تكاثرت الآيات القرآنية الممجدة للعقل الناطقة بعظمته دون أن تمنحه السلطة المطلقة والأحكام المستبدة على كل الأشياء وهو مقيد وله حدود لا يتجاوزها فكانت هي نظرة المهدي إلى

1- الإسراء: 70.
2- الذاريات: 21.
3- الحج 46.

OуЭ ЖÆЄ О Ѿ OуЭ к Ã ЖЎ Ѿ Э r OуЖe Ѿ OуЭ OуЖЎ к e О к

العقل إذ منح تدخله في الشرع لعدم قدرته على إدراك كل شيء رغم أنه أول ما يجب على كل مكلف معرفة عارف يعبده، وهو يدرك لم يستحق هذا المعبود العبادة لذا جاء قول النبي الكريم من علم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة[1] إذ هي مرتبطة بمعرفة الله القادر وحده على صنع الأشياء وتكوين الخلائق، فمن لا يعرف هذا، فهي غير موجبة له على أي حال نتيجة بطلان غيرها لعدم معرفة المعبود نفسه، لذا قال النبيﷺ "من كان يشهد أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله لا يلقاني بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة"[2]، ومن هذا، وجبت الجنة لقائل لا إله إلا الله غير شاك فيها مؤمن بها إيمانا مطلقا، وهو لها موقن يقين صادق تباعا لقوله إياها، بشر بجنات من الله ورضوان.

وقد انطلق ابن تومرت من ذلك كله إلى أن التوحيد [illegible] م به ضرورة من ضرورات العبادة وهو عليها م[illegible] حيد وتقدمه على العبادة واعتما[illegible] ول إليه معرفة الله [illegible] ل شيء، لذا، كان التوحيد "أول [illegible] متعبد لواجب الوجود قبل إدراك حصول بغية التو[illegible] ين ذلك كله من قول النبي الكريم: "من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا [illegible] الجنة، وقوله لمعاذ إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله الذي لا شريك له"[5] إذ استنتج مهدي الموحدين أن العبادة لله لا تصح إلا بالإيمان المعتمد على خلاص النية في العمل الذي يكمن في معرفة الإنسان لما يفعل بالعلم المستند إلى الطلب الدال على حصول الغاية والمقصد، إذ التوحيد يهدم ما كان قبله من الكفر هو عين الشرك الذي لا ينمحي إلا بتركه والإقلاع عنه إقلاعا كليا يندم صاحبه عمل

المكتبة الرقمية
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1 - رواه مسلم في صحيحه. كتاب الإيمان، باب الدليل. برقم 26/ 55/1.
2 - رواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب الدليل برقم 27/ 56/1.
3 - تاريخ الدعوة الموحدية بالمغرب من تأليف علي عبد الله علام صفحة 277.
4 - أعز ما يطلب من تأليف محمد بن تومرت صفحة 229.
5- أعز ما يطلب من تأليف محمد ابن تومرت صفحة 229.

كان منه أو ما كان قد وقع فيه من زلل أدى به الانزلاق في هوى الشرك، كما يقرر أنه بضرورة العقل يعرف وجود الباري سبحانه والضرورة ما لا يتطرق إليه الشك ولا يمكن للعاقل دفعه[1] إذ الضرورة العقلية لا يوجد فيها شك نتيجة وقع استدلالها على واجب الوجود بحوادث تثبت إيجاده للأشياء وقدرته على الإبداع في صنعها إذ لا يعلم كنهها إلا هو لحصول علمه تعالى بالأشياء قبل إيجادها وإخراجها من العدم إلى حيز الوجود، وقد كانت قبل الآن موجودة باعتبار الذهن ثم إن انعدامها حاصل لا محالة، تلك ضرورة العقل الذي يعطيه ابن تومرت القدرة على التحصيل والعلم، فضرورته لا يتطرق إليها الشك بحلل لما تتمتع به من قوة على إدراك الأشياء في عدمها وقبل إيجادها، حيث يستهدف ابن تومرت من وراء كل هذا إلى أن تقسيم الضرورة العقلية التي يتم بها الاستدلال على واجب الوجود إلى ثلاثة أقسام "واجب وجائز ومستحيل، فالواجب ما لا بد من كونه كافتقار الفعل إلى الفاعل. والجائز ما يمكن أن يكون ويمكن أن لا يكون كنزول المطر. والمستحيل ما لا يمكن كونه كالجمع بين الضدين، وهذه الضرورة مستقلة في نفوس العقلاء بأجمعهم وقد استقر في نفوسهم أن الفعل لا بد له من فاعل ليس في وجوده شك"[2].

ولعله أراد إقامة تعاريف لهذه الضرورة العقلية باعتبار تقاسيمها حتى أنه بالإمكان القول من أن الواجب هو الذي لا يتصور في العقل نفيه بحال كإيجاد السماوات والأرض والبحار والجبال وسائر ذلك، مما يعجز العقل البشري عن نسبته إلى غير ذي الجلالة، الملك العلام وأن الجائز هو الذي يتصور عقلا وجوده وعدمه كزراعة الأرض حيث بالإمكان أن تنبت شيئا وقد تكون قاحلة جرداء، كأنها لم تزرع البتة، وكأن يحاول الإنسان اختراع شيء ما يريد نيل نجاح في ذلك المقصود، فقد يكون له ذلك وليس من الواجب أن يحقق غرضه الذي يصبو إليه وأن المستحيل هو الآخر يجوز أن يقال فيه إنه لا يتصور في العقل وجوده كاتخاذ الله جل شأنه شريكا له معه حق التصرف في الملكية، إذ لو وقع ذلك لبطلت

1- أعز ما يطلب من تأليف محمد ابن تومرت صفحة 230.
2- أعز ما يطلب من تأليف محمد ابن تومرت صفحة 230.

OуЭ ЖКÆС О Ѿ OуЭ к Ă ЖЎ Ѿ Э r OуЖ•e Ѿ OуЭ OуЖЎ к •e О к

المعجزة، وكان ذلك انتقاصا في حق القادر الصانع في إتقان وإبداع ملك لا ينازعه فيه إلـه، لذا نبه جل وعلا بقوله: " لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا"[1] وقوله: "ما اتخذ الله من ولـد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض"[2] والآيات الدالـة على استحالة وقوع ما لا يجوز في شأنه كثيرة لا يتطرق الشك إليها بما تحيطه في طياتها الدالة على إعجاز البشر وعدم قدرتهم على الاستقلال، بإيجاد أبسط شيء يوازي إيجاد الله لهـذه المخلوقات بكيفية عجيبة لا يدركها العقل البشري، إلا حين يتدخل فيها ليثبت عدم قـدرة الكائن على إيجاد المستحيلات وخوارق العادات، يكون له مبعث إيمان يخلصه من أوهامـه وما يحوم في عقله من شكوك في الذات الإلهية المقدسة، التي لا يستطيع لعقل نفيها [1] في قول الله تعالى من إيجاد لهذه الأشياء التي لا تنسب إلا إليه، فإذا انتفت : شك

عنه: "أفي الله شك فاطر السماوات والأرض"[3] ..

هناك في أمرها من شك وما ا... رجي يعلم

بضرورة العقا[4]

ويمض ... الإنسان بإمكانه أن يعرف خالقه تبعـا

إلى استدلا ... رجوده وهو الذي وجد من غير شيء وقد كان معدومـا

إذ "بحدوث ... م الإنسان وجود خالقه لعلمه بأنه موجود بعد أن لم يكن. ولعل مـا يكفيه من أدلة وبراهين قاطعة كلها تدل على أنه خلق من ماء مـهين. والإنسـان يعلـم بالضرورة أن الماء الذي خلق منه على صفة واحدة ليس فيه اختلاف ولا تركيب ولا تصوير ولا عظم ولا لحم ولا سمع ولا بصر، ثم وجدت فيه هذه الصفات كلها بعـد أن لم تكـن موجودة، فلما علم حدوثها علم أنها لا بد لها من خالق خلقها[5] ومن هنا لم يكن في كـلام

المكتبة الرقمية
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- الأنبياء: 22.
2- المؤمنون: 91.
3- إبراهيم: 10.
4- أعز ما يطلب من تأليف محمد ابن تومرت صفحة 230.
5- أعز ما يطلب من تأليف محمد ابن تومرت صفحة 231/230.

إمام الموحدين خروج عن الآيات القرآنية حين تحدث عن خلق الإنسان الذي هو مطالب بالنظر إلى نفسه، كي يعرف من خلال ذلك أن واجده الذي أوجده من غير شيء لا يوازيه شريك له في ملكوته، حيث صورت الآية القرآنية ذلك "وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا"[1] وعندما يتحدث عن خلق الإنسان من ماء فهو يرى أنه لا توجد به هذه الصفة التي يشاهد عليها وهو لم يكن إلا ماءا متدفقا خاليا من العضام واللحم وكل الصور المؤهلة لهذا الكائن العجيب، كي يكون إنسانا حين يقول تعالى: "فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق"[2] فلما "علم حدوثها علم أنها لابد لها من خالق خلقها[3] متخذا قدوته الآية القرآنية التي صورت الإنسان وهو مخلوق من سلالة مرجعها إلى التراب صارت تلك بعد مستقرة في الرحم إلى أن تحولت إلى نطفة، وبدلت بعلقة فكانت العلقة هي الأخرى مضغة وإلى أن عادت إلى عظم كسي لحما إذا تم خلق هذا الكائن في تدرج دال على قدرة الله في إحكام وإتقان عجيبين يعجز عنهما المخلوق كيف يستطيع أن يقوم بهذا وهو غير قادر على إعادة نفسه إلى جديد بعد أن تكون قد بليت، وتلك هي نظرة ابن تومرت إلى النفس الإنسانية استقاها من القرآن حرفا بحرف لم يزد عليها قيد شبر حيث قال تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين" إلى قوله "فتبارك الله أحسن الخالقين"[4].

وبالفعل الواحد يعلم وجود الباري سبحانه وكذلك الثاني والثالث إلى مالا ينحصر وجميع المخلوقات يعلم بها وجود الباري سبحانه كما يعلم بحدوث الحرة الواحدة لوجوب افتقارها إلى الفاعل واستحالة وجودها من غير فاعل وما وجب الفعل الواحد من الافتقار إلى الفاعل وجب لجميع الأفعال كل ما علم وجوده بعد أن لم يكن واجب حدوث[5] أي أن

1- مريم: 6.
2- الطارق: 5-6.
3- أعز ما يطلب من تأليف محمد ابن تومرت صفحة231.
4- المؤمنون: 12-14.
5- أعز ما يطلب من تأليف محمد ابن تومرت صفحة 231.

OÿØ ЖÆÇ O Ü OÿØ ת Ã ЖŸ Ü Ø ר OÿЖe Ü OÿØ OÿЖŸ ת e O

استدلال الإنسان على وجود الخالق، يمكن في استخدام فعل واحد يكفل له إثبات قدرة موجد الوجود فخلق شيء واحد من بقية الأشياء لدليل كاف على وجود الله، الذي صنع كل هذه المحدثات استنتاجا من حادثه واحدة من بقية الأفعال الدالة على ثبات وجوده وعدم انتقائها. سبحانه إذ السماوات بجلالها والأرض وما فيها والبحر بعظمته وكل سائر الأشياء موحدة لله دالة على ثباته يضاف إلى ذلك الليل والنهار والحركات والطيور والوحوش وما إلى ذلك وكل فعل لابد له من فاعل إذ ليس بإمكان الفعل إن يحدث نفسه كما أن ليس للحركة أن تكون من غير متحرك يؤديها، وواقع إن ابن تومرت لا يخرج بأي شكل عن القرآن في كثير مما استدل به على الأجناس الموجودة بعد أن لم تكن فإذا علم ... ث جسم واجد علم حدوث سائر الأجسام لمساواتها في التحيز والتغير ... الحدوث والافتقار إلى الفاعل[1] استقى كل هذا من قوله ... الأرض واختلاف الليل والنهار..... ... يتدبرو في آيات الله ال... ... فهم أسرار الآيات الإلهية ... وبحث أسرار عجائبها بعمق؟ انطلق منه فيه ... موته بوجوب التوحيد وضرورته لكل عاقل مكلف بهذا الإش... تفكير ومنبع الانطلاق سابحا في مجال الآيات سابرا أغوارها مستمدا منها قدرته ملبيا ما دعته إليه من مطالبه بالعمل الذي من خلاله أوجب إمام الموحدين على الإنسان معرفة الله بعقله بعد أن انتهى من أن المرشد العاقل فهم حق وحدانية الخالق في ملكه وقدرته على التصرف في هذا الصنع العجيب الجدير بالتدبر العاقل فيه وإليه وجه الخطاب بقوله "الله أوجب على كل مكلف أن يعلم الله عز وجل واحد في ملكه، خلق العلم بأسره العلوي والسفلي"[3]. بيديه تصريف أمور الخلائق جميعها إذ هم مقهورون بقدرته لا تتحسرك

المكتبة الرقمية
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- أعز ما يطلب من تأليف محمد ابن تومرت صفحة 231.
2- البقرة: 164.
3- مرشدة ابن تومرت وآثرها في التفكير المغربي من تأليف سعد غراب 365.

قوة إلا بإذنه موجود في الخلق ليس له قبل ولا بعد، ولا فوق ولا تحت، ويمين ولا شمال... لا يتخصص في الذهن ولا يتمثل في العين لا يتصور في الوهم ولا يتكيف في العقل ولا تلحقه الأوهام والأفكار..."[1]. ليس كمثله شيء مرتفع عما سواه، خاشع إليه ما عداه أتقن الأشياء إتقانا عجيبا، لا يقدر على إتقانها قادر، ثم يتوقف ابن تومرت عند قوله تعالى: "الرحمن على العرش استوى"[2]. مستدلا بأقوال المفسرين كان ولا مكان فهو على ما كان قبل خلق المكان لم يتغير عما كان "لا يقال متى كان، ولا أين كان، ولا كيف كان، ولا مكان كون المكان ودبر الزمان ولا يتقيد بالزمان، ولا يتخصص بالمكان، لا يخرقه وهم ولا يكنفه عقل"[3].

كان إذا أوجب التوحيد على الناس وتعريفهم إياه بفضله غير خارج عن أي الكتاب التي خاطب فيها العقل وأوجب عليه التدخل في توحيد الله وتنزيهه ومن هنالك لا ينبغي أن ننسى أن ابن تومرت أباح تدخل العقل في التوحيد على حين منعه أن يتدخل في الشرع، وقد أقام التوحيد على أساس العقل وذلك لأن طريق التوحيد العقل وكذلك التنزيه عند إمام الموحدين وفيلسوفهم الأول"[4].

خلاصة القول

إن سبب إعلان ابن تومرت مهدويته التي ترمي إلى ملئ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا (حيث كانت مهدوية ابن تومرت في نطاق إسلامي سني معتدل لا كما عهد الناس في مهدوية الفاطميين الإسماعليين المغالين الذين خرجوا على السنة وأهلها بل حاربوا السنة واضطهدوا أهلها) فكان إمام الموحدين خير منقذ للسنة وأهلها في إطار تكوين دولة موحدية تجنح إلى الاعتدال في غير غلو، وحاصل الأمر، فقد كان الجانب التوحيدي أبرز

1- مرشدة ابن تومرت وآثرها في التفكير المغربي من تأليف سعد غراب 365.
2-طه: 5.
3- مرشدة ابن تومرت وآثرها في التفكير المغربي من تأليف سعد غراب 365.
4- تاريخ الفلسفة في شمال إفريقيا من تأليف يحي هويدي صفحة 240.

OуЭ ЖÆÇ О Ѿ Оуэ ѫ Ã ЖЎ Ѿ Э r Оуѫе Ѿ Оуэ ОуЖЎ ѫ е О

آثار الدعوة الموحدية وأبقاها على الأيام حيث زالت الدولة كما يزول كل شيء في الحيـــاة وزالت معالم المهدوية التومرتية عمليا قبل أن يسقط الموحدون، ولكن آثار الدعوة في ميـدان التوحيد[1] ما تزال قائمة بالمغرب إلى يومنا هذا والسبب في بقاء الأثر التوحيـــدي الكلامـــي بالمغرب حتى الآن فيها اعتقد أن الدعوة الموحدية كانت في جوهرها كفاح في سبيل التطـور الفكري المغربي، ومهما كان في دولة ابن تومرت من عيوب ومهما حدث في ذلك كله مـن انحرافات وانزلاقات يكفيها فخرا واعتزازا أن احتضنت فلسفة ابن رشد فحمتها ورعتـــــها ولوقت قصير.

المكتبة الرقمية
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1 ـ تاريخ الدعوة الموحدية بالمغرب من تأليف عبد الله علي علا ص 6-7.